الدرس الافتتاحي بكلية العلوم الاجتماعية لسنة الجامعة 2014/2013

أد حمداوي محمد

أستاذ التعليم العالي، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية جامعة مستغانم

كنت أوثر أن يقول هذه الكلمة أستاذ غيري، فيعفيني عن حرج المواجهة، ويمكنني من متعة الاستماع التي لا ترقى إلى مستواها متعة. خصوصا وان من بين الحاضرين، من هم أكثر مني تجربة، وعلى واقع الجامعة أوسع مني إطلاعا، وفي فن التبليغ أقوى مني وأحسن قليلا. ولكن صدفة الاختيار قضت وواجب الالتزام استجاب. إلا هذه الكلمة التي سميتها درسا لا تحمل اسمها، لا تزيد عن كونها كلمة، رأيا مقتضبا عن العلوم الانسانية والبيئية الاجتماعية وبعد،..

لا تجد أحدا يشتغل بالعلوم الانسانية، وهو يجهل أن الكلمة الأخيرة دائما يقولها المجتمع. ولم يكن عالم الاجتماع الجزائري المتميز، المرحوم جمال غريد، على غير بينة من الحقيقة، حين جعل هذه العبارة عنوانا لاحدى مقالاته الرصينة القيمة. فلقد جسم بذلك إرثا اكتسبه علماء الانسانية اليوم عن فلاسفة الأنوار، ومن قبلهم من دعاة القرون الوسطى، ومن قبلهم من حكماء الفرس والعراق والصين ومصر وإفريقيا واليونان، هؤلاء الذين على عقولهم بنيت الحضارات الإنسانية حول بحرنا الابيض المتوسط.

وكيف لا تكون للمجتمع الكلمة الأخيرة والقرار الأخير، والفرد لا يستمد إلا منه لغته وسلوكه ورؤيته، فلا يفكر ولا يدبر ولا يقول ولا يفعل ولا يتبادل شيئا من الأشياء، ولا امرأة من النساء ولا رسالة من الخطاب، إلا والمجتمع في أول ذلك وآخره وظاهره وباطنه. فإذا تمرد عليه الفرد واعتزله إلى الطبيعة، فإنه لن يملك ألا يعود بإنسانيته إلى الحيوانية، مجردا من الحرف والوعي والعمل.

وللجدلية المادية، كما صاغها ماركس وانجلز قدم السبق في هذا المجال، حينما أقرت بأن الفرد لا يكون واعيا، فلا يتفلسف ولا يتفقه، ولا يتخلق ولا يشرع، ولا يسوس ولا يتفنن ولا يتأدب، إلا متصلا بأفراد المجتمع الآخرين وذلك أن المادة عند الجدليين الماديين ثلاث مستويات:ميتة مثل الحديد والمنغنيز، وحية مثل الانسان المنفرد في المجتمع، والإنسان داخل المجتمع. ورغم أن دوركايم وموس وفيبر وبارسونز، أقروا بوعي الفرد منعزلا عن المجتمع، إلا أنهم نسبوا وعيه إلى القصور وعدم الاكتمال. فالوعي على الحقيقة هو وعي المجتمع. والأفراد المندمجون في جماعة لا يساوون عددهم، كما هو حال الخيل والبغال والحمير، بل يزيدون على عددهم بالتفاعل الواعي بينهم.انهم يفكرون ويشعرون ويتخيلون ويتصرفون وهم في جماعة بصورة أرقى مما يفعلون ذلك، وهم أشتات فردا فردا وحدهم. وحتى لو أقررنا مع دوركايم بوعي الفرد خارج الجماعة، فإن هذا الوعي لا تشكله فطرة ابن طفيل بل يشكله المجتمع، ويحسنه بالتفاعل والاتصال.

بل أكثر من ذلك، فان الفرد، مع صاحب البنيوية التوليدية خزان لوعي المجتمع، وصورته المركزة، عن كل تراكماته الواعية عبر التاريخ، وأفراد الذين يرتقون إلى مستوى الاكتشاف والابتكار أو الابداع إنما أهلهم لذلك إجادتهم لاستبطان وعي المجتمع، في بعض أشكاله أو أحدها، فلا يكون بد من أن يدفعوا هذا الوعي خطورة إلى الأمام .فمن كانت لديه ميولات واستعدادات للنظر إلى الظواهر بشمولية، مثلا، وبحث ومحص عن عللها، فاكتسب من أصحاب الملكة بهذا الشأن معارف، تم صقلها بالممارسة والتدريب لا يملك ألا يكون فيلسوفا. وقس على ذلك عالم الاجتماع والنفس والإعلام والسياسة.

ومع ذلك ، فإن هيجل أو فيورباخ أو فخت أو بنهاني أو مزيان أو الحبابي، وقد انتجوا وعيا، فإنهم ليسوا إلا فاعلين مباشرين، من خلفهم فاعلون غير مباشرين، لا يحصى لهم عدد ولا كيف، صنعو وعيهم ونظرتهم إلى العالم، ليس أرسطو أو الفارابي أو ابن رشد أو كانط أو ميكيافيل إلا بعضهم.

وهؤلاء هم الذين باسمهم، وعلى لسان الفاعلين المباشرين قال المجتمع كلمته الأخيرة. وذلك ما يؤكده غورفيتش صاحب "السمعة الراهنة لعلم الاجتماع ، إذ يرى أن الأي معرفة لا تكون إلا داخل الإطار المرسوم لها سلفا من قبل المجتمع. وبها بلغت من التطور أوجها، فإن أطرا جديدة سوف تحتضنها ولا يكون راسمها إلا المجتمع، من خلال جماعاته الشمولية. بل إن الذاكرة نفسها التي تحتفظ المعارف، لا تحفظها إلا داخل الأطر الاجتماعية المحددة من قبل. وما عبثا، أفرد ليفي –برول لهذه المسألة مؤلفا هو: "الأطر الأسرية للذاكرة".

ولقد فتح ابن خلدون المجال واسعا أمام البراهين المتعددة، لاستحالة وجود الفرد الواعي خارج الجماعة، واستحالة قيامه بأي نشاط واع بمعزل عنها، حين أقام تعليله لمدينة الانسان بالطبع. وإذا كان صاحب العمران قد قصر الأمثلة على ذلك في المعاش والأمن. فإن المقارنة تكشف أن الحياة الاجتماعية آهلة بالأدلة على أن الانسان لا يفكر ولا يدبر ولا يقول ولا يفعل إلا وللمجتمع النصيب الأكبر في ذلك، وله فيه الطابع المسيطر والقرار الأخير. بهذا الوعي حرر ابن خلدون علم العمران البشري والاجتماع الانساني، من رحم التاريخ الدارج والسادج، كما حرر أوغست كونت السوسيولوجيا من رحم الفسلفة الطوباوية المثالية. نعم لم يكن لعلم العمران أن يوجد لولا هذا الرجوع المستمر إلى المجتمع، وما يحصل فيه من وقائع عارضة أو مؤقتة أو جوهرية، وتتحكم في الخبر التاريخي فحسب، بل في كل معطيات العلوم الانسانية، التي إن دانت لابن خلدون باكتشاف علم جديد، غير الخطابة والسياسية، فإنها تدين له أكثر بقواعد المنهج العمراني التي يتقد بها أو يتأكد قانون المطابقة.

إن الحضارات الانسانية، كما أسلفت، لم تبن على عقل طبيب أو مهندس او معماري، أو عالم كيمياء، بل بنيت على عقل الحكماء والمفكرين الانسانيين، مثل كونفوشيوس، وحمو رابي، وأرسطو وابن رشد، والأب دونا، والقديس أو غسسطين وغيرهم. وإذا كانت كل الانسانية وريثة لآثار هؤلاء العظماء، فإننا نحن المشتغلين بالعلوم الانسانية هم الورثة الحقيقيون، لأننا الورثة الأوفر نصيبا من التركة، والأكثر حرصا على تنميتها والحفاظ عليها. ولكن هذا الارث العظيم الذي ولدت أقساطه في بيئات مختلفة، وفيها أتت أقساطه أكلها، لا يمكن أن يكون مفيدا إلا إذا زرعت مسائله في بيئات مناسبة، نختبرها بقانون المطابقة، الذي هو الوحيد القادر على توطين النظريات، علمية أو تحليلية أو معيارية أو ميثافيزقية، وإعطائها صورها الجديدة الملائمة للعصر والمكان.

وأخيرا هل يمكن أن نشبه العلوم بالحجارة، فنحن نعلم أن هناك حجارة بخيلة لا تصلح إلا للبناء ورص الطرق، وأخرى كريمة غالية الثمن تبعث المتعة وتزين أجياد الجميلات فتزددن فتنة وجمالا. فهناك علوم غير عزيزة إذا قسنا قيمتها بموضوعها لا برواج سلعتها في الأسواق، وهناك علوم كريمة، إذا قسنا العلوم بموضوعها ومقاصدها فان أكرم العلوم هي العلوم الانسانية لان موضوعها الانسان الذي كرمه الحق سبحانه على سائر المخلوقات لخدمته مسخرة.أما العلوم الأخرى التي موضوعها الطبيعة والحية منها والميتة فكما أن موضوعها مسخر للإنسان، فإنه ينبغي أن تكون هي الأخرى مسخرة للعلوم الانسانية. ولو أمكنني أن أصنف العلوم تصنيفا إلى نوعين، العلوم التي موضوعها الطبيعة وأسميها العلوم المسخرة. والعلوم التي موضوعها الانسان واسميها العلوم الكريمة